آيات الرجاء الخمس في سورة النساء

دراسة تحليلية أدبية

The Five Ayat of Hope in Surat Al-Nisaa

An Literary Analytical Study

م. د. مقبول علي بشير
Lect.Dr. Maqbool Ali Basheer Alni'ma
جامعة الموصل/ كلية الآداب
Mosul University / College of Arts
E-mail:mmwff@yahoo.com

الكلمات المفتاحية: آيات الرجاء، تحليل النص القرآني، الثيمة، النسق المضمر، دلالة الأسلوب.

Keywords: Ayat of hope, Qur’anic text analysis, theme, implicit format, style indication.

الملخص

ثمة آيات خمس في سورة النساء يجمعها عنوان الرجاء، أشار إليها الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود بقوله: إنّ في سورة النساء لَخمسُ آيات ما يسرني أنّ لي بها الدنيا وما فيها، وقد علمتُ أَنّ الْعلَماءَ إِذَا مرّوا بها يعرفونها، ثم ذكرهن.

والبحث يتناول هذه الآيات بالتحليل النصّي المستند إلى مفاهيم أدبية، منطلقا من تحسس سمت (ثيمة) الرجاء في القرآن الكريم بوصفه أحد أوجه المعاني السائدة في القرآن الكريم، ثم ليتلمس بعدَها النسق الذي انتظمت فيه هذه الآيات في سورة النساء، وتحديد طبيعة هذا النسق، ليصل بعد ذلك إلى تحليل أسلوب الآيات، جملا وتراكيب؛ للوقوف على كل دلالة تفيدها هذه الآيات الكريمات، بغية تأشير عناصرها الجامعة، التي تجعلها في نسق موضوعي واحد.

ومن ثم فإن البحث يهدف إلى الوقوف على المعاني الخاصة والمعاني الجامعة لآيات الرجاء الخمس في سورة النساء.

Abstract

There are five verses in Surat An-Nisa that deal with hope. Abudullah bin Mas'ud (one of the Prophet Companions) says: "Surat An-Nisa contains five verses that make me enjoy the life. I am confident that the scholars will recognize these verses whenever they read Surat An-Nisa".

The present study deals with these verses using text analysis based on literary concepts. Firstly, it observes the feature of hope in the Holy Quran as it is one of general meaning patterns in the Holy Quran. Then, it observes the order of these verses in Surat An-Nisa, and determines the nature of this order. Lastly, it analyses the style of verses, i.e. sentences and structures, and shows the meaning of each verse, in order to demonstrate all the elements that make them deal with the same topic.

The present study aims to show the particular meaning as well as the general meaning of hope in these verses of Surat An-Nisa..

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصـــلاة والســـلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فقد ختم الله تعالى رسـالاته السـماوية بالقرآن الكريم، وفضّـله على سـائر كتبه، وجعله هادياً للتي هي أقوم، وجعل الخير في تعلّمه وتعليمه، ونيلَ الشرف العظيم في تدبره والتأمل في آياته.

وقد خص الله تعالى بعضـا من سـوره وآياته بمزيد فضـل، وأثاب على تلاوتها وعلى تدبرها أجرا عظيما، ونفع بها في الدنيا والآخرة، فمن يبغي مزيد شـرف وخير فعليه أن يولي هذه الآيات وهذه السور مزيد عناية؛ فما أولاها الله مزيد فضل إلا لما حوته من كنوز عظيمة، لا تنال إلا بالحرص على الوصول إليها.

وفي هذا الإطار يشير الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضـي الله عنه إلى خمس آيات في سورة النساء يجمعها عنوان الرجاء، فيقول: إنّ في سورة النساء لَخمسُ آيات ما يسرني أنّ لي بها الدنيا وما فيها، وقد علمتُ أَنّ الْعلَماءَ إِذَا مرّوا بها يعرفونها، ثم ذكرهن.

وهذا البحث محاولة لبيان أسـرار فضـيلة هذه الآيات، وذلك من خلال تناولها بالتحليل النصّـي المستند إلى مفاهيم أدبية، انطلاقا من تحسس سمت (ثيمة) الرجاء في القرآن الكريم بوصفه أحد أوجه المعاني السـائدة في القرآن الكريم، ثم ليتلمس بعدَها النسـق الذي انتظمت فيه هذه الآيات في سـورة النسـاء، وتحديد طبيعة هذا النسـق، ليصـل بعد ذلك إلى تحليل أسـلوب الآيات، على مســـتوى الجملة والتراكيب؛ للوقوف على كل دلالة تفيدها هذه الآيات الكريمات، بغية تأشـــير عناصرها الجامعة، التي تجعلها في نسق موضوعي واحد.

ومن ثم فإن البحث يهدف إلى الوقوف على المعاني الخاصــــة والمعاني الجامعة لآيات الرجاء الخمس في سورة النساء.

تمهيد: آيات الرجاء الخمس

إن أسماء القرآن الكريم وأسماء سوره وآياته من الموضوعات التي اهتمت بها الدراسات المتعلقة بالقرآن الكريم، وشغلت حيزا مهما من مباحث علوم القرآن [1] وغيرها من الدراسات؛ ولا غرابة في ذلك؛ إذ فضلا عن تعلقها بكلام الله تعالى، فإنها تسهم في الانفتاح على بعد دلالي ثري ومهم.

وللقرآن الكريم أسماؤه التي وردت في نص القرآن الكريم وأجمع العلماء على أنها توقيفية، ولســوره أســماؤها التي اختلف العلماء فيها بين التوقيف، والتوفيق والاجتهاد. وفي المقابل فأنهم

أجمعوا على عدم جواز وضع أسماء للسور، بعد ثبوت الأسماء المعروفة، وإجماع المسلمين عليها، وتلقي الأمة لها بالقبول (٢).

أما آيات القرآن الكريم فلم ترد لها أسماء توقيفية، غير أن بعض آيات القرآن الكريم عرفت بأسماء مخصوصة، تسميةً من النبي صلى الله عليه وسلم، أو من الصحابة، أو من اجتهادات المجتهدين، بإقرار من علماء الأمة لعدم وجود ما يمنع ذلك شرعا (٣).

وربما ارتبطت الآية باسمها لتضمنها كلمة بارزة، مثل آية الكرسي، أو موضوعا بارزا، مثل آية المباهلة، أو مناسبة بارزة، مثل آية الصيف (٤).

على أن تسمية الآيات بأسماء مخصوصة ربما جاء من باب الاختصار، أو لتسهيل الإشارة إلى الآية أو الآيات، أو ربما لإبراز موضوع تضمنته هذه الآيات، كما هو الحال مع آية المحاربة (٥).

كما أن التنبيه إلى فضل آية أو آيات، لحفظها أو اتخاذها وردا، أو للمسارعة إلى العمل بمضمونها، أو للتنبيه إلى خطورة موضوعها، مما يستدعي تسميتها، من ذلك قول النبي عليه الصلاة والسلام لأحد الصحابة الكرام: ((لأعلمنّك سورةً هي أعظمُ سورة في القرآن، قال: الحمد لله ربّ العالمين، هي السبعُ المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته))(٦)، ومن ذلك فِعلُ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مع آيات سورة الملك، إذ قال: ((من قرأ تبارك الذي بيده الملك كلّ ليلة منعه اللهُ بها من عذاب القبر، وكنّا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم نُسَمّيها المانعة))(٧)، وكذلك الحال مع مجموعة من الآيات، سماها بعض العلماء (آيات السكينة)(٨)، وهي الآيات: (٢٤٨ من سورة البقرة، ٢٦ و٤٠ من سورة التوبة، ٤ و١٨ من سورة الفتح).

وفي هذا الإطار جاءت الآيات الخمس من سورة النساء، مما أضحت تعرف بآيات الرجاء(٩)، والتي بينها الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود بقوله (١٠):

((إنّ في سورة النساء لخمسَ آيات ما يسرني أنّ لي بها الدنيا وما فيها، وقد علمتُ أنّ العلماء إذا مرّوا بها يعرفونها:

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ النساء

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ النساء

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ... ﴿٤٨﴾ ﴾ النساء

﴿...وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ النساء

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ النساء)).

وعبد الله بن مسعود هو الصحابي الجليل المعروف، من كبار الصحابة، وخادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، من أوائل من أسلم، ومن العشرة المبشرين بالجنة، وأول من جهر بالقرآن من الصحابة، هاجر الهجرتين، وصلى القبلتين، ولقنه رسول الله سبعين سورة، كان أقرب الناس برسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم هديا ودلا وسمتا، وقال فيه النبي صلى الله عليه وسلم تمسكوا بعهد ابن أم عبدٍ (يقصد ابن مسعود)، وندب الناس إلى أن يأخذوا القرآن من أربعة، ذكر أولهم ابن مسعود رضي الله عنه (١١).

وإذا عدنا إلى كلام ابن مسعود رضي الله عنه فإننا نرى أن الجملة الأولى من كلامه أتت مؤكدة بأكثر من مؤكد (إن واللام وتقديم الخبر) لبيان حرصه على تأكيد مضمون قوله، وقوله: (ما يسرني أنّ لي بها الدنيا وما فيها) يراد منها إبراز ما فيها من فضل وخير كثير، وإلا فإن كل حرف من كلام الله تعالى لا تعدله الدنيا وما فيها (١٢).

أما قوله: (وقد علمتُ أنّ العلماء إذا مرّوا بها يعرفونها) ففيه إشارة واضحة إلى أن هذه الآيات جاءت منتظمة في السورة، يجمعها جامع من نسق موضوعي وربما أسلوبي، يدركه العلماء بما لديهم من قدرة على التأمل والتعمق، وبما لديهم من أدوات تعينهم على الغوص في المعاني الدقيقة وفهمها.

أضف إلى ذلك ما ذكره الإمام الشاطبي رحمه الله من كنوز عظيمة جمعتها هذه الآيات حينما قال: ((ولم يُرد ابن مسعود بقوله: ما يسرّني أنّ لي بها الدنيا وما فيها، أنها آياتُ تَرجيَةٍ خاصّةٍ، بل مُرادُه، والله أعلم، أنها كُلّيّاتٌ في الشريعة مُحْكماتٌ، قد احتوت على علم كثير، وأحاطت بقواعد عظيمة في الدين، ولذلك قال: ولقد علمت أن العلماء إذا مروا بها يعرفونها))(١٣).

ومن هنا تَحَفَّزَ البحثُ للقيام بدراسة هذه الآيات دراسة تحليلية، تأخذ بيده للوصول إلى دقائق المعاني، لعله يظفر بفضلها وببركتها، ورأى أن يستعين التحليلُ بأدوات أدبية، ليساير اتجاه الباحث وأدواته، وليترك مجالا لكل ذي اختصاص أن يتجه إلى دراسة هذه الآيات بأدواته التي تدخل في اختصاصه. منطلقا من تحسس ثيمة الرجاء في القرآن الكريم، ثم ليتلمس بعدها النسق الذي انتظمت فيه هذه الآيات في سورة النساء، ليصل بعد ذلك إلى تحليل جملها وتراكيبها للوقوف على كل دلالة تفيدها هذه الآيات الكريمات.

سمت (ثيمة) (١٤) الرجاء في القرآن الكريم

القرآن الكريم كلام الله تعالى المعجز، ورسالة المسلمين الباقية إلى يوم الدين، أنزله على عبده محمد صلى الله عليه وسلم، كتاب هداية إلى الحق، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ البقرة، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ ...۝٩﴾ الإسراء، وهنا يقرن

القرآن الكريم الهداية بالبشارة بوصفها حافزا نفسيا وروحيا، وهي ضرورة للوصول إلى حالة (الأقوم) فيقول: ﴿...وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ الإسراء.

ومن أساليب القرآن الكريم المعجزة التحام الموضوع مع جوانبه النفسية والروحية التحاما تذوب فيه الحدود والأواصر، فلا ترى سوى تلوّنات من الإشراقات المؤثرة المبهرة التي تهز القلوب والعقول. قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ الحشر. ولا شك في أن هذا الجانب من الإعجاز قد شكّل سمة يمتاز بها جو القرآن الكريم.

فمن وجوه إعجاز القرآن الكريم أنه يتسع لثيمات كثيرة، فكلما تدبر المتدبر في القرآن الكريم ليهتدي إلى ما يبحث عنه فإنه سيجده، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ الكهف، ((فانظر حيث شئت من القرآن الكريم تجد بيانا قد قدر على حاجة النفس أحسن تقدير... يؤدي لك من كل معنى صورة نقية وافية)) [١٥]، فالعناصر جميعها تشترك في إبراز صورة تتملاها العين والأذن والحس والخيال والفكر والوجدان [١٦]، تبدو فيها المعاني التي تبحث عنها كأفياء وارفة، أو أجواء ساحرة، أو ألوان باهرة، تستأثر بحظ أوفر من اهتمامك بها عن سواها، فثمة ثيمة للتوحيد وثيمة للحمد، وثيمة للترغيب وأخرى للترهيب، وأخرى للذكر أو للشكر، وغيرها.

ولما كان الرجاء عبادة تتعلق بصلة العبد بالله تبارك وتعالى، وهو يعني: ((الاستبشار بوجود فضل الربِّ تعالى، والارتياحُ لمطالعةِ كرمه، وقيل: هو الثِّقة بوجود الربّ. وقيل: الرّجاءُ ظن يقتضي حصول ما فيه مسرّة. وهو من أَجلّ منازل السّالكين وأَعلاها وأَشرفها)) [١٧]؛ فقد كان من بين الموضوعات التي أعطاها القرآن الكريم عناية بينة، فالله تبارك وتعالى ((يريد من عبده تكميل مراتب عبوديته، من الذل والانكسار، والتوكّل والاستعانة، والخوف والرجاء، والصبر والشكر، والرضى والإنابة، وغيرها، فالرجاء عنصر من عناصر التكملة لهذه العبودية)) [١٨]، وقد أشار العلماء إلى أن قوة الرجاء على حسب قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته وغلبة رحمته على غضبه [١٩].

ويمكن لقارئ القرآن أن يلحظ معاني الرجاء المختلفة بين آيات القرآن الكريم دلالةً ظاهرة، إذ جُعل من سمات المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ البقرة، أو من بين أنواع الدلالة المعروفة، كما فعل ابن قيم الجوزية رحمه الله الذي جعل الرجاء من منازل : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ الفاتحة. وربما بيّن بموجبها بعض العلماء سمة أسلوبية من سمات الرجاء في القرآن الكريم فقال: ((ومن ألطف مقامات

الرجاء: أن يذكر أسباب الرحمة وأسباب العقوبة، ثم يختمها بما يدل على الرحمة، مثل قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢٩﴾ آل عمران وقوله: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ٧٣﴾ الأحزاب)) (٢٠).

وهكذا لا تكاد تجد آية إلا ويمكن أن تلحظ فيها لونا أو طعما أو ظلا للرجاء، فلا يخطئ تالي القرآن سمت الرجاء فيه، بل إن سمت الرجاء بلغ من الظهور أحيانا ومن العمق أحيانا أخرى، بحيث أخذ كبار الصحابة رضوان الله عليهم يتذاكرون حول أرجى آية في القرآن الكريم، ليجمع لهم العلماء بضعة عشر قولا في أرجى آية في القرآن (٢١)، ويذكرون أبعد ما وصل إليه منزع نظرهم في تحديدها (٢٢).

فأبو بكر رضي الله عنه يرى أن أرجى آية في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣﴾ غافر، ولعله نظر إلى تقديم غفران الذنب على قبول التوبة، وكذلك عموم الآية وعدم تقييدها بفئة دون أخرى. وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يراها في قوله تعالى: ﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ٨٤﴾ الإسراء، فإذا عَمِل الكلُّ على شاكِلته؛ فعمَلُ العبدِ الطاعة والمعصية، وعمَل الرب العفوَ والمغفرة، وعثمان بن عفان يراها في قوله تعالى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩﴾ الحجر، وعلي بن أبي طالب يراها في قوله تعالى: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥﴾ الضحى، ناظرا إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم حينما نزلت: إذًا لا أرضى وواحدٌ من أمتي في النار (٢٣). كما قال إنها في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ الشورى، ولعل وجه استدلاله: أن الله تعالى جعل ذنوب المؤمنين صِنفين: صنفٌ كفَّر ذنوبهم بالبلايا والرزايا، وصِنفٌ عفا عنهم؛ فإنه أهل الكرم والعطايا، ومعلومٌ أن الكريم لا يعود في كرَمه، ولا يرجِعُ في عفوه. وقال علي وابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهم: إنها آية الزمر: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ الزمر، وقال ابن عباس إنها في قوله تعالى: ﴿...وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٦﴾ الرعد. وهكذا أوصلها الصحابة الكرام إلى أربعة عشر موضعا أو أكثر (٢٤).

ومما يثير الانتباه أن كل هذه الآيات التي ذكرها الصحابة الكرام ليست من بينها الآيات الخمس التي ذكرها ابن مسعود، وهي مدار هذه الدراسة، ولربما أمكننا أن نعلل ذلك بأن مذاكرة الصحابة هذه جرت قبل نزول سورة النساء التي فيها الآيات الخمس، أو ربما لأن هذه المذاكرة كانت تستند إلى تذوق الصحابة للقرآن بطعم خاص ونظر فيه بفهم خاص؛ ولهذا تباينت تحديداتهم.

إن سمت الرجاء القرآن الكريم يمكن أن تلحظ منه لونا مستقلا تدلّ عليه إشراقات الرحمة التي تنبعث منها، وقد أتى الرجاء كذلك مع قسيمه الخوف [٢٥]، ومن هنا ((يُتصور للعباد أن يكونوا دائرين بين الخوف والرجاء لأن حقيقة الإيمان دائرة بينهما)) [٢٦]، فالرجاء يرد مقرونا بالخوف أو بأحد معانيه، كقوله تعالى: ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ ... ﴿٥٧﴾ ﴾ [الإسراء]، وقال تعالى: ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ ... ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر]. يقول الإمام الشاطبي: ((إذا ورد في القرآن الترغيب قارنه الترهيب في لواحقه أو سوابقه أو قرائنه، وبالعكس، وكذلك الترجية مع التخويف)) [٢٧]. وهذه طريقة القرآن، يقرن بين أَسماء الرّجاء وأَسماء المخافة، كما يقول ابن قيم الجوزية [٢٨].

الآيات الخمس: دلالة النسق ودلالة الأسلوب

يرتبط المدلول اللغوي لكلمة (نسق) بالتتابع المتصف بالتنظيم، فـ((النون والسين والقاف أصلٌ صحيح يدلُّ على تتابُعٍ في الشَّيء. وكلامٌ نَسَقٌ: جاءَ على نظامٍ واحد قد عُطِف بعضُه على بعض)) [٢٩]، و((النّسَقُ مِن كُلّ شيءٍ: ما كان على طريقةِ نظام واحد، عامٌّ في الأَشياء)) [٣٠]، كما أن النسق ما جاء من الكلام على نظام واحد [٣١]، والتّنسيقُ: التّنظيمُ، وناسَقَ بَينَهُما: تابَعَ [٣٢]، والكلام المتناسق: المتتابع بنظام واحد [٣٣]، والنحويون يسمون حروف العطف حروف النّسَقِ لأن الشيء إذا عطفت عليه شيئاً بعده جَرى مجرًى واحداً [٣٤].

وليس بعيدا عن هذا المعنى اللغوي، فقد حضر (النسق) قديما في أدبيات التحليل والتفسير والتأويل، وإن كان ذلك أحيانا تحت مسميات أخرى كالمناسبة والنظم وغيرها [٣٥]. وبقيت إشراقاته إلى وقت ليس بالبعيد [٣٦].

على أن المصطلح عاود الحضور بفاعلية مع المناهج النقدية الحديثة، ولا سيما مع النقد الثقافي، الذي بين أهمية دلالة النسق بوصفها دلالة معتبرة إلى جانب الدلالة المباشرة الحرفية والدلالة الإيحائية المجازية الرمزية [٣٧]، وبيّن حاجة هذه الدلالة إلى أدوات نقدية مدققة؛ فهي تقوم على سؤال النسق، لا على سؤال النص (حامل النسق) [٣٨].

كما برّزَ النقدُ الثقافي ما سماه بـ (النسق المضمر)، وقدّمه على أنه نص غير معلن يتخفى بين أثناء النص الجمالي البلاغي [٣٩]، ويحيل عليه شيء في النص [٤٠]، فالنص ينطوي على نسقين: نسق ظاهر يقول شيئا، ونسق غير معلن أو مخبأ يقول شيئا آخر، والوقوف على الدلالة هنا يتطلب سؤال المضمر بدلا من سؤال الدال [٤١].

وربما في إطار هذا النسق (النسق المضمر)، يمكننا أن نفهم كيف اختار ابن مسعود هذه الآيات، ولماذا قال: (وقد علمتُ أنّ العلماء إذا مرّوا بها يعرفونها).

فالآيات الخمس على تفرقها في سورة النساء، إلا أن مادة جامعة واحدة تجمعها، يدركها من تدبر السورة بوعي يتيح له تتبع العناصر الظاهرة والمتوارية معا، ورصد أواصرها، والوقوف على أبعاد العلاقات بينها.

كما أن مجيء هذه الآيات في سورة النساء يؤكد ما تمت الإشارة إليه، فهي السورة التي لم يختلف المفسرون والدارسون، قديما وحديثا، في أنها سورة الأحكام، لا سيما أحكام النساء واليتامى والأموال والمواريث والقتال(٤٢)، ومن ثم فإن هذه الأحكام تشكل نسقها الصريح، لكن ابن مسعود بمعرفته بكتاب الله عز وجل وببعد نظره لم يقف عنده، بل تجاوزه إلى نسق آخر، يسير بانسجام معجز مع النسق الصريح ولا يتخلف عنه، فأدرك النسق المضمر الذي يجمع الآيات الخمس، وابن مسعود يدرك أن اتساع السورة لأنساق متعددة يعد من خصائص أسلوب القرآن الكريم المعجز، كما أنه يدرك أن معرفته والوقوف عليه ليس بمعضل، لكنه بحاجة إلى تأمل العلماء وتدبرهم؛ ولذلك قال: (وقد علمتُ أنّ العلماء إذا مرّوا بها يعرفونها).

ومن هنا رأينا صحابيا جليلا آخر، بل حبر الأمة: عبد الله بن عباس رضي الله عنه، يحذو حذو ابن مسعود، ويختار ثماني آيات من السورة نفسها (سورة النساء)، خمسا منها هي الآيات نفسها التي اختارها ابن مسعود، وزاد عليها من قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾ ﴾ النساء، وقال في الآيات الثماني: ((ثمان آيات نزلت في سورة النساء، هي خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت)) (٤٣)، وهنا ربما لحظ ابن عباس نسقا مضمرا آخر، لعله التخفيف مع التكليف الذي رآه في نسق الآيات الثلاث، الأمر الذي يتطلب أن يرافقه الرجاء، وهو في نسق الآيات الخمس التي اتفق عليها الصحابيان الجليلان.

وعود على بدء، فإن نسق الآيات الخمس المضمر يبدأ من الخطاب في مطلع السورة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ... ﴿١﴾ ﴾ النساء، فههنا اللبنة الأولى والأساس في بناء السورة، والخطاب لجميع الناس (٤٤)، ومدار الأمر على تقوى الله، ((والمعنى: احذروا عقاب الله بأداءِ حقوقه، وحقوق العباد))(٤٥)، لتبدأ التكاليف الشرعية وأحكامها بعد ذلك من الآية الثانية: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ ... ﴿٢﴾ ﴾ النساء، وتستمر إلى آخر السورة: ﴿ يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ ... ﴿١٧٦﴾ ﴾ النساء.

وبين مطلع السورة وبين أول آية من آيات الرجاء (الآية ٣٠) جاءت في سورة النساء مجموعة من الأحكام، لها صلة بالمال وبالنساء، وعلى النحو الآتي:

من الآية ٢ إلى الآية ٦ أحكام حقوق الأيتام المالية.

من الآية ٧ إلى الآية ١٤ أحكام تخص الميراث.

من الآية ١٥ إلى الآية ١٨ أحكام تخص الفحش في العلاقات.

من الآية ١٩ إلى الآية ٢٥ أحكام تخص النكاح.

ثم بعد هذه الأحكام تأتي آيات ثلاث، وهي أولى الآيات الثماني التي أشّرها ابن عباس زائدة على الآيات الخمس المشتركة مع ابن مسعود، والآيات الثلاث هي من قوله تعالى:

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ النساء.

وهذه الآيات صريحة في أنها تجمع ثلاثة مما يريده الله تعالى (يريد الله) من خلال تكرارها ثلاث مرات مع تقديم وتأخير في إحداها لدلالة سيبينها البحث إن شاء الله، ففي الأولى يريد الله أن يبين شرعه وأحكامه بيانا لا مواربة فيه؛ ليكون حجة على المكلفين، وهذا ما بينته الآيات السابقة (١ . ٢٥) على وجه الخصوص، وسورة النساء على وجه العموم، وفي الثالثة بين الله تعالى أنه يريد أن يخفف على المكلفين، لا أن يشق عليهم؛ فغاية شرعه هو للتنظيم ومن ثم التخفيف، وليس لمجرد التكليف والتعنيف.

وبين الأولى والثالثة جاء ما (يريد الله) تعالى مقابلا لما يريده أصحاب الشهوات، ليشير ما يريده أصحاب الشهوات إلى أن تطبيق التكاليف يصحبها صراع مع الشهوات وأصحابها.

كما يمكن للمتأمل في هذه الآيات أن يدرك غلبة ما (يريد الله)، وذلك من خلال مؤشرات عديدة، منها:

أن الآيات ذكرت (يريد) مقرونة بلفظ الجلالة ثلاث مرات، في مقابل مرة واحدة منسوبة إلى (الذين يتبعون الشهوات)، ولا شك في أن إرادة الله هي الغالبة حتى وإن ذكرت مرة واحدة، ولكن تكرارها ثلاثا وفي كل مرة مع موضوع إرادة مختلف؛ جاء ليضفي طمأنينة إضافية في أن تقوى الله في تطبيق التكليف سيثمر تحقيق ما (يريد) من (البيان والتوبة والتخفيف) على وجه اليقين.

كما أن كلمة (يريد) في بداية الآية الأولى والثالثة جاءت تأسيسا لجملة فعلية، فعلها مضارع؛ ليدل ذلك على دوام التجدد والحدوث، وجاءت مسندة إلى لفظ الجلالة الصريح؛ ليدل ذلك على ارتباطها الواضح والمباشر بالله عز وجل وبإرادته، من دون فواصل ولا وسائط.

أما في بداية الآية الثانية فهناك أمران حدث فيهما عدول، الأول وجود الواو (والله يريد)، على خلاف الآيتين الأولى والثالثة (يريد الله)؛ وهذه الواو للحال؛ تنبيهاً من الله تعالى على أنه يريد

التوبةَ عليكم في حال كونهم يريدون أن تَميلوا(٤٦)، والعدول الثاني هو أن الجملة هنا جاءت اسمية (والله يريد)، فدلت على دوام إرادة التوبة من الله وثبوتها، كما دلت ((على التخصيص الإضافِي، أي: الله وحده هو الذي يريد أن يتوب عليكم، أي يُحرّضَكم على التوبة والإقلاع عن المعاصي))(٤٧)، وأنها ستكون في المواجهة ثابتة كلما تجددت إرادة الذين يتبعون الشهوات في ميل المكلفين، الذي تدل عليه الجملة الفعلية (يريد الذين يتبعون الشهوات...) التي جاءت على طريقة المشاكلة مع (يريد الله) لتشير إلى السعي الحثيث لأولئك، الذي أشبه رغبة إرادة المريد(٤٨)، وجاءت مسندة إلى اسم موصول مع صلته (الذين...)؛ ليشير إلى أن المسند إليه متعدد ويعرف بصفته لا بذاته، كما أنها جاءت متأخرة؛ ليدل ذلك على أن إرادة الله سابقة ومقدّمة.

هذه الآيات فيها من الطمأنينة إلى غلبة إرادة الله في التوبة على عباده، وربما هذا ما دعا ابن عباس رضي الله عنه إلى أن يعدها للأمة، إلى جانب الآيات الخمس، خيرا مما طلعت عليه الشمس. في دلالة . ربما . على نسق مضمر آخر يؤشّره ابن عباس من خلال الآيات الثماني، وهذا لا يتنافى مع نسق ابن مسعود، بل يتساوق معه وينسجم، وهذا من دلائل إعجاز القرآن الكريم وتنوع سمْته، كما تقدم في البحث.

ثم تأتي آيتان توجزان ما سبق من أحكام بقاعدة شرعية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم ...وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ ...﴿٢٩﴾ ﴾ النساء. على أن الرحمة بالعباد ما تزال فاعلة ومؤكَّدة بأكثر من مؤكد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾ ﴾ النساء، فهو وعد، مقرون بوعيد، تبيّنه الآية التي بعدها: ﴿ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾ النساء ، يقول ابن عاشور: ((وإنما قيده بالعدوان والظلم ليخرج أكل المال بوجه الحق، وقتْلُ النفس كذلك، كقتْل القاتل))(٤٩).

إن الآيات الثلاثين الأُول من سورة النساء تضمنت نسقا من أنماط شتى من الأحكام، التي لها ارتباط مباشر بالتعاملات اليومية بين الناس، ووردت بصيغ أسلوبية شتى، أغلبها جاء على طريقة فعل الأمر المسند إلى ضمير (الجماعة أو النسوة في الغالب): (اتقوا، آتوا، انكحوا، كلوه، ارزقوهم، قولوا، ابتلوا، ادفعوا، أشهدوا، ارزقوهم، قولوا، استشهدوا، أمسكوهن، آذوهما، أعرضوا، عاشروهن، انكحوهن، آتوهن)، أو على طريقة النهي بـ(لا) الناهية المسندة إلى الفعل ا لمضارع المقررون بواو الجماعة على طريقة (لا تفعلوا)، مثل: (لا تتبدلوا، لا تأكلوا، لا تؤتوا، لا تأكلوها، لا تعضلوهن، لا تأخذوا، لا تنكحوا، لا تأكلوا، لا تقتلوا)، أو على طريقة النص بالتحريم (حرمت عليكم ...)، أو بطرائق وأساليب أخرى ، تدل على تشريع أمر، مثل: (للرجال نصيب) (يوصيكم الله) إلى غير ذلك من الأساليب التي يطول المقام إن أردنا بيانها.

إن ثلاثين آية من الأحكام، لا سيما تلك التي تتعلق بحياة الناس اليومية، مما له علاقة بأمرين تحوم حولهما الفتنة: المال والنساء، لهو أمر يستدعي قلق المكلف، وربما يصل إلى حالة اليأس التام المحبط، لا سيما إن علمنا أن ابن مسعود حينما سئل عن الكبائر قال: ((ما بين أول سورة النساء إلى رأس ثلاثين))(٥٠).

لكن ((الله سبحانه وتعالى يعلم ضعف الإنسان وعدم استطاعته التفلت من نزعات النفس وأهوائها بالمرة، ويعلم أن هناك ما قد يدق عن فهم مداه بصورة عامة من هفوات قد تبدر منه عن حسن نية أو غفلة أو بغير تعمد للأذى والإثم والمخالفة، أو ما يكون ضرره وأذاه محدودا، فآذن المسلمين في هذه الجملة أن المهم هو اقتراف الموبقات والكبائر والفواحش فإذا ما اجتنبوها ودللوا بذلك على التزامهم حدود الله وقاموا بما عليهم من واجبات نحوه ونحو خلقه أسبغ عفوه وغفرانه على ما يلمون به من الأخطاء والهفوات الثانوية))(٥١).

وهنا يأتي قوله عز وجل: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ النساء الآية الأولى من الآيات الخمس، ليعطي شعاع رجاء بالحصول على أجر الله، مع القيام بالتكاليف. فـ((كأن الله بعد تكليفاته في أمور الأعراض والأموال وتكليفاته في الدماء من قتل النفس وغيرها، أوضح: إياكم أن تستقبلوا الأشياء استقبالاً يجعلكم تيأسون من أنكم قد تعجزون عن التكليف لبعض الأمور، فأنا سأرضى باجتناب الكبائر من المساوئ))(٥٢).

والآية مبنية على الشرط، وأداته (إنْ)، مما يفيد أَن عند حصول الشرط يحصلُ المشروط، ولا يفيد أنّ عند عدم الشرط يلزم عدم المشروط (٥٣)، وعلى هذا فتكفير السيئات قائم عند اجتناب الكبائر، ومسكوت عنه عند عدم اجتنابها، ليبقى باب الرجاء مفتوحا.

وفعل الشرط محدد بـ(تجتنبوا) المضارع المسند إلى واو الجماعة، والاجتناب: ترك الشيء عن جنب بعيداً عنه لا يُقبل عليه ولا يَقرَبُه (٥٤)، وهذا يعني: أنْ تجهدوا أنفسكم بالقصد الصالح في أن تتركوا الكبائر تركاً عظيماً (٥٥)، فدلالة فعل الشرط (تجتنبوا) هنا تتضمن عملا قائما على المبادأة والمسارعة والتجدد والقصد.

وما يجب اجتنابه هو (كبائر ما تنهون عنه)، والكبائر: ما عظم من الذنوب وعظمت العقوبة عليه (٥٦)، وجاءت هنا نكرة مضافة إلى (ما) الموصولة، ولم تأت معرّفة (الكبائر)؛ لأن الكبائر متى ما عرّفت وحددت هنا صارت إغراء بالعبد لارتكاب صغائر الذنوب الموعود بتكفيرها، بعد أن يحترز من الكبائر المحددة، ويشبهها العلماء بإخفاء ليلة القدر وساعة الإجابة في الجمعة إلى غير ذلك (٥٧).

والمضارع المبني للمجهول (تنهون عنه)، يشمل جميع ما يُنهى عنه، ولو أراد ما في سورة النساء فقط على طريقة الإحالة النصية لقال: نُهيتم عنه، وفيه إشارة كذلك إلى المتلقي بدوام التأمل في التشريع من مظانّه المختلفة وطرائقه المتباينة، فربما حُمِلَ أمرٌ استجد في حياة الناس على أنه من كبائر ما ينهى عنه، بقياس أو إجماع. كما أن فيه إيماءً إلى أن الانتهاء والكف هو استجابة لأمر الله على وجه العبودية والخضوع والاستسلام؛ لأنه هو المقصود، فقد ينتهي الرجل عن الكبيرة لأنه يكرهها أو لأن قانونا وضعيا يمنعها.

وجواب الشرط يحمل في دلالته العديد من الجوائز، يسهم في تعظيم الرجاء فيما عند الله تعالى، فمنها:

فعل جواب الشرط المضارع (نكفر...) وما يدل عليه، ففضلا عن دلالته على التجدد، فإنه مبدوء بنون العظمة (٥٨)؛ وذلك لبيان عظمة الفعل، وضميره مستتر؛ للإشارة إلى ما هو معهود من أن الله عز وجل وحده من يكفر السيئات، وههنا واحد من مكامن الرجاء، فتكفير السيئات موعود بها ممّن لا يملكها غيره؛ فهو وعد صدق.

والكفر: تغطية ما حقه الإظهار، وكفّر الله السيئات: محاها ولم يعاقب عليها (٥٩)، وسترها؛ فـ (الكَفْرُ) في الأصل: السَّتْرُ (٦٠)، والمعنى: سَتَرَها بالعفو (٦١). فههنا عفو من الله عز وجل مع ستر: جائزة إضافية؛ لأن ما يُعفى عنه ويستر هي السيئات، وهي جمع سيئة وتعني: الفعلة القبيحة، وسميت بذلك لأنها تسوء صاحبها عاجلا أو آجلا (٦٢).

كان ذلك (تخلية)، ولا بد أن يتبعها (تحلية)، وهي جائزة إضافية معطوفة على الأولى، (وندخلكم...): مضارعٌ مع نون العظمة، تجددٌ للفعل وتعظيمٌ له، (مدخلا): يمكن أن يكون اسم مكان الدخول، ويجوز أن يكون مصدراً ميمياً، والمعنى: ندخلكم مكانا كريماً وهو الجنة، أو ندخلكم دخولاً كريماً، ويمكن للكلمة هنا أن يتسع معناها للأمرين معا: دخول الجنة دخولا كريما، والكريم هو النفيس في نوعه (٦٣)، وكل هذا مما يُرجّى.

وبعد الآية الأولى من آيات الرجاء، تستأنف سورة النساء بيان أحكام أخرى، وكأن الآية كانت محطة لتزويد النفس برجاء تحتاجه لمعالجة القلق من عدم استطاعة المكلف من تطبيق الأحكام التي تضمنها ما سبق من آيات.

وأولى الاحكام المستأنفة تحذر من أمر يكمن في خلجات النفس، ولا تكاد نفس تقوى على النأي عنه، وهو أن يتمنى المرء ما عند الآخر، وما ينطوي عليه هذا الأمر من عدم الرضا بما قسم الله، فتفسد المعاملات بين الناس، وينشأ الحسد (٦٤) الذي قامت على أثره أولى الجرائم على الأرض بأن قتل قابيل أخاه هابيل، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ

نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ ﴾النساء.

ثم تلتها آية القوامة، لتحديد المسؤوليات وتنظيم العلاقة الأسرية والمجتمعية بين الرجل والمرأة: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ... ﴿٣٤﴾ ﴾النساء، وآية الشقاق: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا ... ﴿٣٥﴾ ﴾ النساء، بتناولها لمسائل مهمة ومعقدة (نشوز وهجران في المضاجع وضرب وحَكَم وصلح)؛ لتعالج حالة تعثر العلاقة بين الأزواج. ثم بعد ذلك تأتي آية الحقوق العشرة، عشرة حقوق في آية واحدة، موزعة بين العبد وربه، والعبد وما حوله من الناس، مختلفين في أنماطهم، وفي طبيعة العلاقة معهم: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ ... ﴿٣٦﴾ ﴾النساء. ثم الآيات التي تبين حالة من حالات التعامل مع المال، وهي حالة البخل، أو الإنفاق رياءً: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ... ﴾ النساء ٣٧-٣٩. هذه الآيات جميعا تثير تخوفا وقلقا، هل يمكن تطبيق أحكامها على الوجه المطلوب؟

وهنا يأتي شعاع رجاء آخر ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ النساء، لا تقلق، اعمل صالحا، مهما بلغ من الصغر، فسيضاعفه لك الله. فالعمل المبني على الاستسلام لأمر الله مطلوب، لا غنى عنه، كما هو الحال في الآية الأولى.

ابتدأت هذه الآية بالإخبار بصفة عدل الله سبحانه وتعالى[٦٥] بـ(إنّ) المؤكدة، الداخلة على الجملة الإسمية، مع تقدم المسند إليه (الله) على أداة النفي (لا)، وهذا من شأنه تقوية الحكم الذي يعني ((قوة العلاقة في الإسناد بين المسند والمسند إليه، أي إثبات الحدث الذي يحمله المسند إلى المسند إليه بشكل لا يخالطه الريب أو التقليل، ليزيل ما بنفس المتلقي من الشك والتردد))[٦٦]، فهذه الصيغة من شأنها أن تمنح دلالة أقوى وأعمق من أن يقال: لا يظلم الله مثقال ذرة، ((لضياع التأكيد بإن والتأكيد باسمية الجملة والتأكيد في التخصيص، فقد تضافر السياق على الدلالة بأن الله وحده هو الذي لا يقع منه جنس الظلم ولا أقل القليل منه سبحانه جل شأنه))[٦٧]

وأصل الظلم: النقص، وقيل هو وضعُ الأشياء في غير موضعها [٦٨]، ومعنى الآية لا يمتنع عن أن يجمع الاثنين، فالله تعالى لا ينقص من أجر عمل مهما دقّ، ويجازي على السيئة بمثلها، عدلا، ويجازي على الحسنة أضعافا، تفضلا منه وإحسانا، ولا يضع جزاء هذه بدل تلك؛ لأنه ظلم، والله تعالى منزّه عنه.

و(مثقال ذرة): زنة ذرة [٦٩]، والذرة هنا مثلٌ في تناهي الصغر، وكناية عن العدم[٧٠]، فهذا الذي يعدّ عند صاحبه مع العدم ، فإن له ثقلا ووزنا يوم القيامة، يُخرج صاحبَه من النار إلى الجنة، وهذا مما تؤيده السنة النبوية في حديث الشفاعة الطويل من رواية أبي سعيد الخدري الذي

يشير في آخره إلى تعلق الحديث بهذه الآية، وفي هذا الحديث يشفع المؤمنون إذا ((رأوا أنّهُم قد نجوا في إخوانهم يقولون: ربَّنا، إخوانُنا كانوا يُصَلّونَ معَنا ويَصومون معنا ويعملون معنا، فيقولُ اللهُ تعالى: اذهبوا فمَن وجدتُم في قلبهِ مثقالَ دينارٍ من إيمانٍ فأَخرجوهُ، ويُحَرِّمُ اللهُ صُوَرَهُم على النّار، فيأتونَهُم وبَعضُهم قد غاب في النّار إلى قدمه وإلى أنصاف ساقيه، فَيُخرِجُونَ مَن عَرَفوا، ثُمّ يَعُودُونَ فيقولُ اذهبُوا فمَن وجدتُم في قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوهُ، فيُخرِجُونَ مَن عرَفوا، ثمّ يَعودونَ فيقولُ اذهبوا فمَن وجدتم في قلبه مثقال ذرّةٍ من إيمان فأخرجوه، فيُخرِجُونَ مَن عَرَفوا، قال أبو سعيد: فإن لم تُصدّقوني فاقرؤوا:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ ﴾ النساء))[٧١].

هذا الحديث فيه تمام بيان للجائزة الثانية، المتضمن في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا ﴾، وهذه الجملة إخبار بصفة إحسانه عز وجل [٧٢]، مبنية على أسلوب الشرط، المتكون من: (إنْ) وهي الأداة، وفعل الشرط (تك)، وهو من (تكون) الناقصة مع اسمها المستتر (يعود على ذرة) وخبرها (حسنة)، وقد ((حُذفَت النون من (تك) لكثرة الاستعمال، وكان القياسُ إثباتَ الواو، لأنّ الواو إنّما حذفت لالتقاء السّاكنين. فكان ينبغي أنَهُ إذا حُذفَت ترجع الواو، ولأنّ الموجب لحذفها قد زال)) [٧٣]، ولكنها وردت هنا محذوفة، ولهذا دلالته التي يراها البحث في مناسبتها لصغر الذرة.

وجواب الشرط (يضاعفها)، بالفعل المضارع الدال على التجدد والحدوث، والمضاعفة: إضافة الضعف، أي: المثل[٧٤]، و((لم يُبيّن في هذه الآية الكريمة أقلّ ما تُضاعَفُ به الحسنة ولا أكثرهُ، ولكنه بيّن في موضع آخر أنّ أقلّ ما تُضاعَفُ به عشرُ أمثالها، وهو قوله: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ الأنعام، وبين في موضع آخر أنّ المضاعفة رُبّما بلغت سبعمائة ضعف إلى ما شاء اللهُ، وهو قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ البقرة)) [٧٥].

و﴿وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ جائزة أخرى سوى المضاعفة، أجر عظيم؛ ولذلك أضافه الله تعالى إلى ضمير الجلالة إضافة تشريف، فقال: من لدنه [٧٦]، و((لدن: بمعنى (عند) إلا أنّ (لدن) أكثر تمكينا، يقول الرجلُ: عندي مالٌ، إذا كان مالهُ ببلد آخر، ولا يُقالُ: لدَيّ مالٌ ولا لدُنّي، إلا ما كان حاضرا)) [٧٧]، وفي هذا إشارة إلى صدق وعد الله تعالى؛ فهو وعد بما يملك، وإلى غناه وسعة فضله، وإلى أن هذا الأجر العظيم تفضل منه، وسماه أجرا ليشير . ربما . إلى أنه مقابل عمل صالح ينبغي على العبد المبادأة به ليستحقه.

ويبدو أنه ليس من الغريب أن يتنبّه ابن مسعود لهذه الآية، لا سيما أن له موقفا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيما يخص الآية التي تليها، إذ روي عنه أنه قال: ((قال لي النبيّ صلى الله عليه وسلم اقرأ عليّ، قلتُ: يا رسولَ الله آقرأُ عليك وعليكَ أُنزلَ؟ قال: نعم، فقرأتُ سورةَ النّساء حتى أتيتُ إلى هذه الآية﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ النساء، قال: حسبك الآن، فالتفتُّ إليه فإذا عيناهُ تذرفان))[٧٨]. وقد قيل في سبب بكائه عليه الصلاة والسلام أنه بكى على المفرطين من أمته وهو شاهد عليهم، أو من هول المطلع وشدة الأمر، وقيل بل إنه رقةً لقبُول شهادة أمته صلى الله عليه وسلم، يوم القيامة وقبول تزكيته لهم في ذلك اليوم العظيم [٧٩]. وربما هذا الأخير يتناسب مع نسق آية الرجاء التي سبقتها، فتكون الآيتان وعد للمؤمنين، والآية التي تليهما: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾ النساء، وعيد للكافرين.

شعاع الرجاء الثالث من الآيات الخمس يأتي مع قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ النساء، وهذه الآية أشبهت آية الرجاء الثانية في أن الآيتين كلتيهما ابتدأتا بإنّ المؤكدة، الداخلة على الجملة الإسمية، مع تقدم المسند إليه (الله) على أداة النفي (لا)، ودلالة هذا قد أشار البحث إليها، ولكن هذا التوازي التركيبي يشير إلى نسق يربطهما من حيث التركيب، فضلا عن نسق المناسبة من التكليف، الذي يتبعه الرجاء المستظل في ظل معاني المغفرة والرحمة، وهذا ما أشره البحث في الآيتين الأوليتين، وهو قائم في هذه الآية كذلك، إذ سُبقت الآية بآية التيمم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ ... ﴿٤٣﴾ ﴾ النساء، التي تتضمن أحكاما تخص الصلاة.

وفي المقابل فإن لهذه الآية ما يميزها، فهي أولا جاءت في نسق آيات تتحدث بتفصيل واضح عن أهل الكتاب والكفار والمشركين والمنافقين (الآيات: ٤٤ – ٩١)، فنراها تتضمن ما يُنظّم علاقة الأمة الإسلامية بالآخرين، في حين كان ما سبقها من آيات تتحدث عن الأحكام التي تتعلق بتنظيم شؤون الأمة الداخلية، ليتشكل منهما النسق الصريح لما تضمنته سورة النساء من أحكام.

وكذلك فإن الآية كُرّرت (مع اختلاف في التذييل) في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾ النساء، فالتكرار جاء في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾، وذلك للتوكيد، تقبيحًا لشأن الشرك[٨٠]، وليخص ((جانب الوعد والرحمة بمزيد التأكيد، وذلك يقتضي ترجيح الوعد على الوعيد))[٨١]. أما التذييل فقد قال في الأولى: ﴿فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾؛ لأنها أتت في سياقٍ المخاطَبُ فيها هم أهلُ الكتاب الذين عرفوا الحق، فيكون شركهم من قبيل الافتراء، وقال في الثانية

﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾ وهو موجه في سياقه للمسلمين؛ تحذيرا لهم من مخالفة الرسول، ومن موافقة المنافقين فإنها من جنس الضلال [٨٢].

وأمر آخر ميز هذه الآية هو أنها اشتملت على المغفرة، لكنها لم تتبع بجوائز أخرى كما هو الحال مع الآيتين السابقتين، ولعل ذلك مرده إلى أمرين، الأول: حكم الآية ((واقع على من مات كافرا))[٨٣]، أي عند الجزاء وتوقف العمل؛ لذلك فالمغفرة لليائس في هذا المقام من أعظم الجوائز، وتشكل غاية الرجاء. والأمر الثاني: أن الآية تتحدث عن أكبر الكبائر، وهو الشرك بالله، فهناك كبائر أخرى وآثام عظيمة، لا يستحق مرتكبوها تلك الجوائز.

وأمر أعظم الذنوب كان قد شغل ابن مسعود رضي الله عنه حتى سأل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ((سألتُ النبيّ صلى الله عليه وسلم، أيُّ الذّنبِ أعظم عند الله؟ قال: أنْ تجعلَ لله نِدّا، وهو خَلَقكَ، قُلتُ: إنّ ذلكَ لَعظيمٌ)) [٨٤].

والآية سيقت لتأكيد وجوب امتثال الأمر بالإيمان، لأنه لا مغفرة إذا انتفى الإيمان [٨٥]. قد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة ففي مشيئة الله تعالى إن شاء عفا عنه ذنبه، وإن شاء عاقبه عليه ما لم تكن كبيرته شركا بالله تعالى[٨٦] ، وقد اتفق العلماء على أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ من المحكم المتفق عليه الذي لا اختلاف فيه بين الأمة، ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ من المتشابه الذي قد تكلم العلماء فيه[٨٧].

الشعاع الرابع جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ النساء، وابن مسعود حدده في قوله تعالى:﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾.

والآية جاءت بعد تعريضٍ بأنماط لأناس يريد القرآن فضحهم وفضح ما انطوت عليه نفوسهم، وتبيان أفعالهم السيئة من الإشراك والنفاق والكذب وغير ذلك، وذلك بأسلوب التنبيه على طريقة الاستفهام بـ(ألم تر)، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ ...﴾، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ...﴾، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ...﴾ ، كما أنها جاءت بعد أحكام بتكاليف عامة على طريقة الأمر المباشر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ... ﴿٥٨﴾﴾ النساء و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ ... ﴿٥٩﴾﴾ النساء، وكل هذا مما يستدعي القلق من الوقوع فيما تحذّر منه الآيات، أو عدم إمكانية الوفاء بالأوامر والأحكام؛ فتأتي الآية هنا تشع بالرجاء في عفو الله تعالى، مما يجعل الوفاء بها ممكنا.

والآية فيها أسلوب الشرط، الذي مبدؤه الأداة: (لو) وهي حرف امتناع لامتناع، متبوعة بجملة اسمية مؤكدة بـ(أنّ)؛ لتأكيد ثبوت حكمها، واسمها: الضمير (هم)، ومرجِعُهُ إلى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ... ﴿٦٠﴾﴾ النساء، على أنه قد يكون المقصود بهم هنا ذينك الرجلين، أحدهما من الأنصار والآخر من اليهود، تخاصما فجعل اليهوديّ يقول بيني وبينك محمد، وذاك يقول بيني وبينك كعب بن الأشرف. أو هم جماعة من المنافقين ممّن أظهروا الإسلام، أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية، أو غير ذلك، والآية أعمّ من ذلك كله؛ فإنها ذامَّة لمَنْ عَدَلَ عن الكتاب والسنة وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل (٨٨).

وقد اتبعت الأداة كذلك بالظرف (إذ)، وهو يعني (حين)، وهي مضافة إلى (ظلموا أنفسهم) ومتعلقة بالفعل الماضي المسند إلى الضمير المتصل (جاؤوك) متقدمة عليه، ليشير هذا التقدم إلى أن المجيء ينبغي أن يكون من غير تأخير (٨٩)، على أن (الكاف) تعود على النبي صلى الله عليه وسلم، والظرف مع الفعلين الماضيين كان لهم دور في تعميق البعد الزمني وردِّه إلى الماضي، ومردّ الكلام: لو ثبت مجيئهم حين ظلموا أنفسهم ....

وظلم النفس أشقى أنواع الظلم، وهو يأتي من تحقيق شهوة عاجلة تورث شقاء دائماً، فمن يترك الواجب من التشريع، ويرتكب المنهي عنه قد يظن في ظاهر الأمر أنه يحقق لنفسه متعة، في حين أنه يظلم نفسه ظلماً كبيرا (٩٠).

وقد قرن استغفارهم الذي هو عنوان توبتهم باستغفار الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لأنّ ذنبهم هذا لم يكن ظلما لأنفسهم فقط، فيكفي فيه توبتهم، بل تعداه إلى الرسول، من حيث إنه رسولٌ، له وحدَهُ الحق في الحكم بين المؤمنين، فكان لا بد أن يظهروا ذلك للرسول؛ ليصفح عنهم فيما اعتدوا به على حقه، ويدعو الله تعالى أن يغفر لهم إعراضهم عن حكمه، ومن هذا البيان يمكن أن نفهم كذلك وضع الاسم الظاهر موضع الضمير في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾، ولم يقل: واستغفرت لهم (٩١)، وفضلا عن ذلك فأن فيها تفخيما لشأن الرسول عليه الصلاة والسلام، وتعظيما لاستغفاره، وتنبيها على أن شفاعة (الرسول) لها مكانة عظيمة عند الله تعالى (٩٢).

أما الجائزة في هذه الآية ففي الكم والنوع، وهي في جواب الشرط: ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾، والكم متحقق في صيغة المبالغة لـ(تواب) ولـ(رحيم)، وأما النوع ففي اقتران التوبة مع الرحمة، فالجائزة قبول عظيم من الله تعالى للتوبة، مصحوب برحمة عظيمة في سرعة المنّ به، وفي ستر الذنب بعد التوبة منه.

وبعد: فإن هذه الآية بارتباطها بما مضى من زمن دون المستقبل، مع ارتباطها كذلك بشرط المجيء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، الذي يتعذر تحقيقه بعد وفاته صلى الله عليه وسلم، بل حتى قبل وفاته لا سيما ممن يفصله عن لقاء النبي صلى الله عليه وسلم ما يفصله من بعد في المسافة وما إلى ذلك. وربما أثار هذا تساؤلا: لماذا عدّها ابن مسعود من بين الآيات التي اختارها، وربما هي مقصورة على مجموعة دون أن تكون عامة في عموم المسلمين؟، والجواب يمكن أن يأتي من طريقين، الأول: من ابن مسعود، إذ حدد آيات شكّلت مصدرا لمزيد من السعادة والرجاء له أولا (ما يسرني أنّ لي بها الدنيا وما فيها)، وذكرُهُ لها لينبّه إليها عامة المسلمين، وهذه الآية لا شك أنها مصدر سعادة له؛ لأن ما بينه وبين توبة الله عليه ليس أكثر من قدومه على النبي صلى الله عليه وسلم وطلبه منه أن يستغفر له، وهذا أمر متاح له؛ فهو خادم النبي والملازم له كما قدم البحث، كما أنه يعلم علم اليقين أن النبي صلى الله عليه وسلم سيستغفر له[٩٣]. أما الثاني فمن نص القرآن الكريم، فإن كانت هذه الآية مخصوصة في حياة النبي عليه الصلاة والسلام، فأنه أتى بعدها في السورة نفسها (وهي الآية الخامسة من آيات الرجاء الخمس، من قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾[النساء]) ما يجعل الحكم عاما غير مرتبط بزمن، كما أن بعض المفسرين رأى إمكانية تأويل (جاؤوك) بالمجيء إلى سنته عليه الصلاة والسلام بعد موته والتمسك بها ((فكما كان الأحياء يجيئونه، فنحن نجيء إلى حكمه وسنته وتشريعه، وهو يستغفر لنا جميعا))[٩٤]. وبهذا يمكن أن تكون الآية غير مخصوصة كذلك.

شعاع الرجاء الخامس في الآية الأخيرة من الآيات الخمس، من قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾[النساء]، وبينه وبين الآية الرابعة ما يقرب من أربعين آية (الآيات: ٧١- ١٠٩) من الآيات التي تتضمن أحكاما لها علاقة بالجهاد: من التهيؤ له واختيار المقاتلين وإعدادهم عقديا ونفسيا، ثم تلك التي تبين ما أشكل من أمور تتعلق بمجاهدة المنافقين، وأخرى تتعلق بالقتل العمد والقتل الخطأ، وتحديد العدو من الصديق، وفضل المجاهدين، والهجرة في سبيل الله، وإقامة الصلاة أثناء القتال، وتجنب الجدال العقيم، وسوى ذلك مما تضمنته هذه الآيات، مما أسهم في إضفاء سَمْت الحرب والقتال عليها، وغلبة أجواء المعركة وألوانها، التي تشيع جوا من القلق من إمكانية القيام بتكاليفها.

وعلى الرغم من أن هذه الآيات تحدثت عن القتال وضراوته، إلا أن جانب الرحمة كان متوغلا في مفاصلها، ويعاود تأكيد حضوره بين آونة وأخرى، وعلى سبيل المثال فقد تكرر قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ في هذه الآيات أربع مرات، هذا فضلا عن إشارات الرحمة الأخرى.

هذا الحضور تُوّج بآية الرجاء الخامسة من قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾النساء، التي تضمنت هبة ربانية، ملؤها المغفرة والرحمة، يرجوها كل ذي لب.

والآية كذلك فيها أسلوب الشرط، وأداة الشرط فيه: (مَنْ)، وهي اسم شرط جازم، مختص بالعقلاء، مبهم، وإبهامه يفيد العموم، ليشير إلى عموم من يشمله حكم المسند (يعمل سوءا أو يظلم نفسه) فلا حدود ولا قيود. واسم الشرط في محل رفع مبتدأ، في إيماءة ربما إلى أهمية الحكم الذي تستأنفه الجملة واستقلاليته.

وفعل الشرط (يعمل سوءا)، وهو مشترك بالعطف مع (يظلم نفسه)، بحرف العطف (أو) الذي يفيد التخيير، ليكون ذلك . بفضل الله ورحمة . أرجى للعباد، وأوسع لما للمغفرة وأشمل، فمنْ (يعمل سوءا) يُغفر له، ومنْ (يظلم نفسه) يُغفر له، ولو كان العطف بالواو لامتنع أن يُغفر له إلا أن يكون قد قام بالفعلين، فإن قام بأحدهما فقط فلا يتحقق جواب الشرط.

والفعلان المتعاطفان المتعلقان بالشرط في هذه الآية مضارعان، وهذا أرجى للعباد؛ إذ يدلان على الحدوث والتجدد، ويشيران إلى المستقبل، وفي هذا دلالة على أن جواب الشرط يتحقق، مهما تكرر فعل الشرط أو تجدد، بدون وضع حدود للزمن أو وضع نهاية له.

كما أن التعاطف في الآية يدل على تغاير الجملتين، واستقلالية دلالة أحداهما عن الأخرى، على الرغم من وجود رأي يقول بأنهما بمعنى واحد مع اختلافٍ في اللفظ؛ وذلك للتوكيد والمبالغة [٩٥].

وثمة آراء عديدة لتحديد دلالتيهما، من أبرزها أنه قيل بأن المراد بـ(يعمل سوءا) أي يعمل القبيح الذي يسوء به غيره، وبـ(يظلم نفسه) ما يختص به الإنسان[٩٦]، وقيل: إنّ عمل السوء هو الاعتداء على حقوق الناس، وظلم النفس هو بالمعاصي الراجعة إلى مخالفة المرء في أحواله الخاصّة ما أُمر به أو نُهِيَ عنه [٩٧]. وقيل: إن عَمل السوء هو العصيان ومخالفة ما أَمَر به الشرع ونَهى عنه، وظلم النفس شاع إطلاقه في القرآن على الشرك والكفر، كما أنه أطلق كذلك على ارتكاب المعاصي [٩٨].

وربما اتجهت هذه الآراء إلى جهتين انطلاقا من الآية نفسها، فمَنْ نَظَر إلى تعدي الفعل (يظلم) إلى (نفسه)، رأى أن ما يقابله: (يعمل سوءا) يكون مختصا بالآخرين، ومن نظر إلى (يظلم) وتعلق معناها في القرآن الكريم بالشرك [٩٩]، رأى أن عمل السوء يشير إلى المعاصي مما هي دون الشرك.

ولكن لو نظرنا إلى العبارتين في السياق الرجاء الذي أتت فيه الآية الكريمة، لأمكننا الوقوف على دلالة الشمول والعموم في تركيبيهما وفي تغايرهما، فكلمة (سوءا) جاءت نكرة، ولم

تقيد بتَعْدِيَة، لتضيف عموما إلى عمومها في دلالتها اللغوية، فالسوء لغة: عامّ في كل ما يَغُمُّ[١٠٠]، أو كل ما يَقبُح [١٠١]، أو ما ذكر بسيئ [١٠٢]، وعليه فإن دلالتها منفتحة على كل سوء: من المتوجه إلى النفس أو إلى الغير، ومن صغير الذنب وكبيره، فهو ((الذنب مطلقا؛ لأن عاقبته تسوء ولو عند الجزاء))[١٠٣].

أما كلمة (يظلم) فقد جاءت في الآية الكريمة مقيدة بـ(نفسه)، وربما جاء ذلك لأن الإنسان يمكن له أن يتصور أنه من المنطق أن يقع ظلم للآخر، ولكن من غير المنطق أن يظلم نفسه، فالآية بينت مغفرة ما هو بعيد عن حسابه وعن تصوره، فمن باب أولى أن يشمل ذلك الأقرب. وهذا يتناسب وسياق الرجاء، فضلا عن كونه يتناسب مع سعة رحمة الله ومغفرته وفضله، التي جاءت هذه الآية لتبينها وتؤكدها.

وهذا العموم يؤيده المعنى اللغوي لـ(الظلم)، فهو ((عند أهل اللّغة وكثير من العلماء: وضع الشيء في غير موضعه المختصّ به، إمّا بنقصان أو بزيادة، وإمّا بعدول عن وقته أو مكانه))[١٠٤]، أما تخصيص الظلم هنا بالشرك فقط فربما يكون بعيدا عن هداية الآية، على أن الشرك هنا لا شك داخل في باب العموم، فيكون معنى الآية في حملها على العموم أرجى من حملها على التخصيص.

أما ما خصصه النبي صلى الله عليه وسلم من معنى (الظلم) بـ(الشرك) فيما ورد في الحديث: ((لمّا نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ ...﴿٨٢﴾﴾ الأنعام، شَقَّ ذلك على المسلمين، فقالوا: يا رسول الله، أيّنَا لا يظلمُ نفسَه؟ قال ليس ذلك، إنّما هو الشّركُ، ألَم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يَعِظُه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ لقمان؟))[١٠٥]، فقد جاء في آية يختلف نصُّها وسياقها، ومن ثم مقصدها، فالآية تتحدث عن إشراك غير الله مع الله في اعتقاد الإلهيّة وفي العبادة [١٠٦]، وقد ((وردت في نفي الشّركاء والأضداد والأنداد، وليس فيها ذكر الطّاعات والعبادات، فوجب حمل الظلم هاهنا على ذلك)) [١٠٧].

وهذا الأمر لا شك في أنه لا يغيب عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فهو من روى هذا الحديث المعروف، ولعه أدرك أن دلالة (يظلم نفسه) في آية الرجاء عامة[١٠٨]، وأن تخصيصها بالشرك لا يتوافق ونص الآية وسياقها.

وعلى هذا فالجملتان (يعمل سوءا) و (يظلم نفسه) يمكن حملهما على عموم دلالتهما، وربما كانا من باب عطف الخاص على العام أو لتفصيل ما أبهم[١٠٩]، ليكوّنا معنى ((جامعا لأفعال السوء كلها، ما كان منها متعديا أثره إلى الغير، وما كان مقصورا على النفس وحدها))[١١٠]، وهما سوية وبمجملهما أسسا لـ((قاعدة عامة يدخل فيها كل تائب مستغفر))[١١١].

و(ثم) في قوله تعالى في الآية: ﴿ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ﴾ حرف عطف يفيد الترتيب مع التراخي، وقد أعطى مسافة زمنية غير محددة بين المعطوف: (يستغفر)، والمعطوف عليه: (يعمل سوءا أو يظلم نفسه)، لتكون مسافة أمل يرجوها كل من غالبته المعصية ويريد أن يعود إلى جانب الحق والصواب، وهذا مما يدخل في باب حلم الله تعالى على العصاة والمذنبين، وإعطائهم مهلة حتى يتوبوا ويستغفروا، وهذا أرجى للعبد مما لو جاء العطف بحرف الواو أو الفاء، لأنه إذ ذاك لتخصص جواب الشرط (التوبة) بعدم وجود فاصل بين المعصية والاستغفار، وهذا شاق على المكلفين، بل ربما كان على الأغلب متعذرا. هذا فضلا عما أدّته (ثم) من ((الإشارة إلى ما بين المعصية والاستغفار من تفاوت معنوي شاسع، إذ المعصية تؤدى بفاعلها إلى الخسران أما الاستغفار الذي تصحبه التوبة الصادقة فيؤدى إلى الفلاح والسعادة)) [١١٢].

وجملة ﴿ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ﴾ فعلية، تدل على التجدد، والفاعل ضمير مستتر، ناسب ستر الله للمستغفر وذنوبه. والمفعول به، وهو لفظ الجلالة، أُظهر استحضارا لجلاله وعظمته وتلويحا بغفرانه[١١٣]، وربما لبيان من ينبغي أن يتوجه الاستغفار له ويُخصص، بيانا لا ريب معه ولا التباس.

وجواب ما تقدم من الشرط هو في قوله تعالى: ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾، وهو هنا يخلو من أية إشارة إلى التراخي في الزمن، في دلالة على تحقق الإجابة مباشرة وسريعا، حتى لكأن ((المغفرة والرحمة مُعَدّان لطالبهما، مُهَيَّآنِ له متى طلبَهُما وجدهما))[١١٤] وهذا مما يرجّى في مقام الاستغفار، هو وما دل عليه الفعل المضارع (يجد)، من تكرار تجدّده ما تجدد الاستغفار، فضلا عن مجيء المفعول الأول اسما ظاهرا، لتخصيص المغفرة به دون غيره، وللاستئناس بذكره، فمن خلال القرب من الله عز وجل دون حُجُب يعظم رجاء المستغفر.

ثم تأتي المغفرة معها الجائزة ﴿غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾، غفران للذنوب جميعا دون تحديد، يواكبها مزيد من الرحمة التي دلّت عليه صيغة (فعيل) وهي هنا للمبالغة؛ ولا شك أن في عظم الجائزة هذا تعظيم لشأن الاستغفار. ومجمل معنى ﴿غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ ((شديد الغفران وشديد الرحمة، وذلك كناية عن العموم والتعجيل، فيصير المعنى: يجد الله غافراً له راحماً له؛ لأنّه عامّ المغفرةِ والرحمةِ، فلا يخرج منها أحد استغفره وتاب إليه، ولا يتخلّف عنه شمول مغفرته ورحمته زَمناً، فكانت صيغة (غفوراً رحيماً) مع (يجد) دَالَّةً على القبول من كلّ تائب بفضل الله)) [١١٥]، ولا في أن هذه المعاني من غاية ما يرجوه العبد في مقام الاستغفار والتوبة.

الخاتمة

في ختام البحث يمكن إيجاز أبرز نتائجه فيما يأتي:

- ثمة آيات خمس في سورة النساء، يجمعها عنوان الرجاء، اختارها الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ورأى أنها أحب إليه من الدنيا وما فيها، وقد بين البحث أن السبب في اختيار الصحابي لهذه الآيات لم يكن لكونها آيات ترجية خاصة، فالرجاء في آيات القرآن الكريم أوسع من أن يحاط به، ولكن لكونها كليات في الشريعة محكمات، فيها علم كثير وأحاطت بقواعد عظيمة في الدين.
- دلّت الآيات على عظيم رحمة الله تعالى بعباده وقربها منهم، ومنها تجاوزه عن ذنوبهم ومعاصيهم جميعها مهما بلغت، ومهما تنوعت، لتملأ نفوسهم أملا وقلوبهم رجاء بما عنده.
- شكلت الآيات في سورة النساء على وجه التخصيص مجموعة سياقية متجانسة، أتت في نسق مضمر، منسجم مع النسق الصريح للسورة وهو نسق الأحكام.
- من مزايا النسق المضمر أن كل آية من الآيات الخمس جاءت تتويجا لمجموعة من آيات تتضمن أحكاما وتكاليف تشريعية، تثير قلق المكلف من إمكانية تطبيقها على وجه ينجيه من عواقب الإخلال بها.
- هناك مؤشرات أسلوبية للآيات الخمس يمكن الوقوف عليها، لعل من أبرزها ظهور العناصر اللغوية لأساليب الشرط والتوكيد، فضلا عن الملامح الأسلوبية من الإيجاز والمبالغة بصيغها وأساليبها.

- مضمون الآيات الخمس يتحدث عن وعد صدق من الله تعالى بالتوبة ومغفرة الذنوب، ووعد الله عز وجل محكم لا ينسخ، وهو بمثابة الماء للرجاء.
- تضمنت الآيات معاني كثيرة، لعل من أبرزها أن الرجاء يجب أن يقرن بالعمل، فلا توبة ولا مغفرة بدون أن يبادر العبد بالعمل بما أُمر به واجتناب ما نُهي عنه. كما أنه ينبغي أن يكون دافعُه التسليم لله عز وجل، والسمع والطاعة والامتثال لأوامره.
- ومن بين المعاني التي تميزت بها الآيات هو أن وعد الله بالتوبة والمغفرة يُتبع بـ(جوائز) أخرى حافلة بعظيم العطاء، تعظيما لثواب الله تعالى، ومن ثم يكون ترغيبا في التوبة والاستغفار، وتوسعة لمساحة الأمل والرجاء.

- الرجاء من بين أبرز الموضوعات التي توافرت على حظ عظيم من القرآن الكريم، ومن ثم فقد أضفى عليه سمتا خاصا بما يتضمنه من أجواء الرحمة والمغفرة والجزاء الحسن والثواب، وبما تحفه من سمات لغوية وأسلوبية ونصية.

وختاما ... فهذا ما بلغ من جهد البحث، فما كان فيه من خير وصواب فمن الله عز وجل وحده، وله وحده المنة والفضل، وما كان فيه من خطأ أو سهو أو تقصير فمن النفس والشيطان، نبرأ إلى الله تعالى من كل ما لا يحبه ربنا ويرضى، ونسأله مغفرته ورضوانه، ونرجو ما عنده من وساع رحمته وفضله.

والحمد لله رب العالمين

الهوامش والمصادر:

(١) ينظر على سـبيل المثال: جامع البيان في تأويل القرآن (تفسـير الطبري)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م: ١/ ٩٤، إذ أفرد فيه مبحثا تحت عنوان (القول في أسـماء القرآن وسـوره وآياته)، وينظر: البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت٧٩٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط١، ١٩٥٧م: ١/ ٢٧٣، والإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د. ط، ١٩٧٤م: ١/ ١٧٨.

(٢) ينظر: أسماء القرآن الكريم وأسماء سوره وآياته معجم موسوعي ميسر، آدم بمبا، مركز جمعة الماجد، دبي، ط١، ٢٠٠٩: ٣٥ و ٤٩.

(٣) ينظر: أسـماء الآيات، د. خليل إسـماعيل إلياس، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسـانية، مجلد ١٦، عدد: ٣، ٢٠٠٩م: ٥٠، وأسماء القرآن الكريم: ١٢١.

(٤) أسماء الآيات: ١١٣. ويقصد بها الآية الأخيرة من سورة النساء التي تتحدث عن الكلالة وقد نزلت في الصيف، تمييزا لها عن الآية التي تحدثت عن الكلالة في بداية السورة والتي نزلت شتاء.

(٥) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٣/ ٢٧٤.

(٦) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب ما جاء في فاتحة الكتاب. ينظر: الجامع الصـحيح (صـحيح البخاري)، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ)، دار الشعب، القاهرة، ط١، ١٩٨٧: ٦/ ٢٠.

(٧) السنن الكبرى، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت٣٠٣هـ)، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ٢٠٠١م: ٩/ ٢٦٢.

(٨) ينظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، عدد من المختصين، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، ط٤، د. ت: ٦/٢٢٧٠، وينظر: نتاج الفكر في أحكام الذكر، أبو محمد عبد الله بن مانع العتيبي، دار التدمرية، الرياض، ط ١: ٢٠١٤: ٣٠٣.

(٩) ينظر: البحر المحيط في التفسير (تفسير ابن حيان)، أبو حيان أثير الدين محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي (ت٧٤٥هـ)، تحقيق: صـدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، د. ط، ١٤٢٠هـ: ٤/ ٥٩، ونحو تفسير موضـوعي لسـور القرآن، محمد الغزالي، دار الشـروق، القاهرة، ط ٤، ٢٠٠٠م: ٤٧، ويراجع: سـلسـلة التفسـير لمصـطفى العـدوي، أبو عبـد الله مصـطفى بن العـدوى المصـري، www.islamweb.netar و www.islamway.net/video/82948

(١٠)المعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت٣٦٠ هـ)، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار إحياء التراث العربي، ط٢، ١٩٨٣م: ٩/ ٢٥٠، والمسـتدرك على الصـحيحين، أبو عبد الله الحاكم النيسـابوري (ت٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٠: ٢/ ٣٣٤.

(١١) ينظر: السيرة النبوية، أبو محمد جمال الدين عبد الملك بن هشام (ت٢١٣هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط ٢، ١٩٥٥م: ١/ ٣١٤، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر (ت٤٦٣هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٩٩٢م: ٣/

٩٨٨. والإصابة في تمييز الصحابة، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ: ٤/ ٢٠٠، وتاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، حسين بن محمد بن الحسن الدّيار بكري (ت٩٦٦هـ)، دار صادر، بيروت، د. ط، د.ت: ٢/ ٢٥٧.

(١٢) ينظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط ١، ١٩٩٧م: ٣/ ٩.

(١٣) الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحق إبراهيم بن موسى اللخمي الشهير بالشاطبي (ت٧٩٠هـ)، شرحه وخرج أحاديثه: عبد الله دراز، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م: ٤/ ١٧٨.

(١٤) ثيمة أو تيمة، هي كلمة من لاتينية الأصل (thema) بمعنى موضوعة، وهي تشير إلى مجموعة كلمات تنتمي إلى حقل واحد لإعطاء دلالة معينة، فمثلا قد يكون النص موحيا بالحزن ويسيطر عليه جو من الأسى فنقول: ثيمته الحزن وهكذا. وترى (Sch. R. Kenan) أن الخطاب يحتوي في الغالب على ثيمة كبرى تؤطر الخطاب وضمنها ثيمات صغرى، تنتشر بصورة لا متماسكة داخل النص، ولا يمكن تحديدها إلا بجمع هذه الشذرات النصية التي يمكنها أن تتمم الإطار العام للثيمة. فكل العناصر الخطابية يمكنها أن تساهم في بلورة الثيمة الكبرى للنص، ومن تم تصبح الثيمة بناء تصوريا. وترتكز الثيمة على ثلاث عمليات إجرائية مرتبطة ببعضها، وهي: التجميع والتعميم والعنونة. ينظر: التيمة: إشكالية المصطلح وامتداداته، ليلى احميانى، الحوار المتمدن، العدد: ٤٥٠٥، ٧/٧/٢٠١٤،

http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=422872&r=0

(١٥) النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، محمد عبد الله دراز، دار الثقافة، الدوحة، د. ط، ١٩٨٥م: ١١١.

(١٦) ينظر: التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط ١١، ٢٠٠٤م: ٣٧.

(١٧) ينظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (ت٨١٧هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، د. ط، ١٩٩٦: ٣/ ٤٦.

(١٨) الرجاء في القرآن الكريم: www.balagh.com/article.

(١٩) ينظر: بصائر ذوي التمييز: ٣/ ٤٧.

(٢٠) القواعد الحسان لتفسير القرآن، عبد الرحمن بن ناصر السعدي(ت١٣٧٦هـ)، مكتبة الرشد، الرياض، ١٩٩٩: ٥٩.

(٢١) الزيادة والإحسان في علوم القرآن، شمس الدين محمد بن أحمد بن سعيد الحنفي المكيّ، المعروف كوالده بعقيلة (ت١١٥٠ هـ)، مجموعة من الباحثين، مركز البحوث والدراسات جامعة الشارقة الإمارات، الشارقة، ط ١، ١٤٢٧هـ: ٦/ ٤٢٠.

(٢٢) من ذلك اللقاء اللطيف الذي جمع ابن عباس مع ابن عمرو، فقال له ابن عبّاس: أيُّ آية في كتاب الله أرجى عندك؟ قال: ﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ الزمر، فقال: لكنّ قول إبراهيم: ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ ... ﴿٢٦٠﴾ ﴾ البقرة هذا لما في الصّدور ويوسوسُ الشّيطان فرضي الله من قول إبراهيم بقوله ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ ﴾. ينظر: المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري (ت٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٠: ١/ ١٢٨.

(٢٣) مواقف الخلفاء الراشدين هذه مذكورة في مصادر عدة، لكنها مجملة عند القرطبي. ينظر: الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد القرطبي (ت٦٧١هـ)، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، د. ط، ٢٠٠٣م: ٢٠/ ٩٦.

(٢٤) ينظر: بيان المعاني، عبد القادر بن ملّا حويش (ت١٣٩٨هـ)، مطبعة الترقي، دمشق، ط١، ١٩٦٥م: ٢/ ٥٥٩، و أرجى-آية-في-القرآن www.ar.islamway.net/article/37749

(٢٥) ينقل عن بعض العلماء قوله: ((الخوف والرّجاء كجناحي الطّائر إذا استويا استوى الطّير وتمَ طيرانه. وإذا نقص أحدهما وقع فيه النّقص. وإذا ذهبا صار الطّائر في حدّ الموت)). ينظر: مدارج السالكين: ٢/ ٣٧.

(٢٦) الموافقات في أصول الشريعة: ٦٨٦

(٢٧) الموافقات في أصول الشريعة: ٦٨٣.

(٢٨) جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، دار العروبة، الكويت، ط٢، ١٩٨٧: ١٧٤.

(٢٩) معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا(ت٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، د. ط، ١٩٧٩م: ٥/ ٤٢٠.

(٣٠) لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور(ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ: (نسق): ١٠/ ٣٥٢.

(٣١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت٣٩٣هـ)، أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٨٧: ٤/ ١٥٥٨

(٣٢) القاموس المحيط، أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (ت٨١٧هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط٨، ٢٠٠٥م: ٩٢٥.

(٣٣) ينظر: معجم متن اللغة، أحمد رضا، دار مكتبة الحياة – بيروت، د. ط، ١٩٦٠ م: ٥/ ٤٥١.

(٣٤) ينظر: لسان العرب: (نسق): ١٠/ ٣٥٢.

(٣٥) ينظر: النقد الأدبي أصوله ومناهجه، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٨، ٢٠٠٣: ٤٥، النسق والتناسق وأثره في التفسير سورة التين نموذجاً، أحمد إسماعيل نوفل، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، مجلد ٢، عدد: ٢، ٢٠٠٦: ٩، ودور جرس اللفظة القرآنية في التناسق الفني في آيات البعث والحشر، أ. قويدر قيطون، مجلة اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة الوادي، الجزائر، مجلد ٦، العدد٦، ٢٠١٤م: ٤٢.

(٣٦) فعلى سبيل المثال: يرى سيد قطب أن عناصر الجمال في القرآن الكريم كامنة في صميم النسق القرآني ذاته، لا في الموضوع الذي يتحدث عنه ذاته. ينظر: التصوير الفني في القرآن: ١٩.

(٣٧) النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ٣، ٢٠٠٥: ٧٣و ٧٨، ونقد ثقافي أم نقد أدبي، عبد الله محمد الغذامي وعبد النبي اصطيف، دار الفكر، دمشق، ط ١، ٢٠٠٤م: ٢٦.

(٣٨) نقد ثقافي أم نقد أدبي: ٢٦.

(٣٩) ينظر: مناهج النقد الأدبي السياقية والنسقية، د. عبد الله خضر حمد، دار القلم، دمشق، د. ط، د. ت: ٤٤٠.

(٤٠) دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، د. سمير الخليل، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ط، ٢٠١٦: ٢٩٤

(٤١) ينظر: نحو نظرية أدبية ونقدية: ١٨.

(٤٢) ينظر: الموسوعة القرآنية، خصائص السور، جعفر شرف الدين، تحقيق: عبد العزيز بن عثمان التويجزي، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ: ٢/ ١٠٧.

(٤٣) جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هــ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م: ٨/ ٢٥٧، وينظر: شعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي(ت٤٥٨هـ)، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ: ٥/ ٤٢٧.

(٤٤) التحرير والتنوير (تفسير ابن عاشور)، محمد الطاهر بن عاشور (ت١٣٩٣هــ)، الدار التونسية، تونس، د. ط، ١٩٨٤م: ٤/ ٢١٤.

(٤٥) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجموعة من العلماء، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ط ١، ١٩٩٣م: ٢/ ٧٤٣.

(٤٦) ينظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (تفسير السمين الحلبي)، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي (ت٧٥٦هـ)، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، د. ط، د. ت: ٣/ ٦٦١.

(٤٧) تفسير ابن عاشور: ٥/ ٢٠.

(٤٨) ينظر: تفسير ابن عاشور: ٥/ ٢٠.

(٤٩) تفسير ابن عاشور: ٥/ ٢٥.

(٥٠) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر البقاعي (ت٨٨٥هـ)، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ط،١٩٩٥م: ٢/ ٢٤٧. أو قال: ((افتتحوا سورة النساء فكل شيء نهى الله عنه حتى تأتوا ثلاثين آية فهو كبيرة)). ينظر: الدر المنثور، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، دار الفكر، بيروت، د. ط، د.ت: ٢/ ٥٠٥.

(٥١) التفسير الحديث، محمد عزت دروزة، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د. ط، ١٣٨٣هـ: ٨/ ١٠٠.

(٥٢) تفسير الشعراوي (الخواطر)، محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، القاهرة، د. ط، ١٩٩٧:٤/ ٢١٥٢.

(٥٣) ينظر: التفسير الكبير (تفسير الرازي)، أبو عبد الله محمد بن عمر الملقب بفخر الدين الرازي (ت٦٠٦هــ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٢٠هـ: ١٠/ ٦٢، و١١/ ٢٠٣.

(٥٤) ينظر: أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، أبو بكر جابر بن موسى الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط ٥، ٢٠٠٣م: ١/ ٤٦٧.

(٥٥) ينظر: نظم الدرر: ٢/ ٢٤٦.

(٥٦) التفسير الوسيط، سيد طنطاوي: ٣/ ١٢٨.

(٥٧) تفسير الرازي: ١٠/ ٦١.

(٥٨) وهي نون المضارعة، تختص بلفظ الجلالة. ينظر: اللمحة في شرح الملحة، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن حسن المعروف بابن الصائغ (ت٧٢٠هــ)، تحقيق: إبراهيم بن سالم الصاعدي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط ١، ٢٠٠٤م: ١/ ١٤٣.

(٥٩) ينظر: معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، د محمود عبد الرحمن عبد المنعم، دار الفضيلة، القاهرة، د. ط، د. ت: ٣/ ١٥٠.

(٦٠) ينظر: المغرب في ترتيب المعرب، أبو المكارم ناصر بن عبد السيد المطرزي (ت٦١٠هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ط، د.ت: ٤١١.

(٦١) شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، نشوان بن سعيد الحميرى اليمني (ت٥٧٣هـ)، تحقيق: د حسين بن عبد الله العمري وآخرون، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط ١، ١٩٩٩م: ٩/ ٥٨٦٩.

(٦٢) ينظر: التفسير الحديث: ٨/ ١٠٠.

(٦٣) ينظر: تفسير ابن عاشور: ٥/ ٢٧.

(٦٤) تفسير ابن عاشور: ٥/ ٣١.

(٦٥) ينظر: تفسير ابن حيان: ٣/ ٦٤٢.

(٦٦) دلالة التراكيب في سورة النساء، سميحة الأبيض، كلية الآداب واللغات، جامعة الحاج لخضر، الجزائر، ٢٠١٣م: ٨١

(٦٧) دلالة التراكيب في سورة النساء: ٨٢

(٦٨) ينظر: لسان العرب: (ظلم): ١٢/ ٣٧٣.

(٦٩) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (تفسير ابن الجوزي)، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت٥٩٧هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ: ١/ ٤٠٦.

(٧٠) ينظر: نظم الدرر: ٢/ ٢٥٨.

(٧١) صحيح البخاري: ٩/ ١٥٩.

(٧٢) ينظر: تفسير ابن حيان: ٣/ ٦٤٢.

(٧٣) تفسير ابن حيان: ٣/ ٦٤٣.

(٧٤) ينظر: تفسير ابن عاشور: ٥/ ٥٦.

(٧٥) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي (ت١٣٩٣هـ)، دار الفكر، بيروت، د. ط، ١٩٩٥م: ١/ ٢٤١.

(٧٦) ينظر: تفسير ابن عاشور: ٥/ ٥٦.

(٧٧) تفسير الزمخشري: ١٠/ ٨٣.

(٧٨) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب قول المقرئ للقارئ حسبك: ٦/ ٢٤١.

(٧٩) ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، أبو محمد محمود بن أحمد العينى (ت٨٥٥هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ط، د. ت: ١٨/ ١٧٤.

(٨٠) البحر المديد، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة (ت١٢٢٤هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢ ٢٠٠٢م: ٢/ ١٤٢.

(٨١) ينظر: تفسير الرازي: ١١/ ٢٢٠.

(٨٢) ينظر: تفسير ابن عاشور: ٥/ ٢٠٢.

(٨٣) النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام، أحمد محمد بن علي الكَرَجي(ت: نحو ٣٦٠هـ)، تحقيق: علي بن غازي التويجري، دار ابن عفان، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٣م: ١/ ٢٧٢.

(٨٤) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب قوله تعالى: فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون: ٦/ ٢٢.
(٨٥) التفسير الوسيط، سيد طنطاوي: ٣/ ١٧٧.
(٨٦) تفسير القرطبي: ٥/ ٢٤٥.
(٨٧) ينظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي: ٣/ ١٧٨.
(٨٨) ينظر: تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت٧٧٤هـــ)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ: ٢/ ٣٠٥.
(٨٩) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود)، أبو السعود العمادي محمد بن محمد (ت٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ط، د.ت: ٢/ ١٩٦.
(٩٠) ينظر: تفسير الشعراوي: ٤/ ٢٣٧٠.
(٩١) ينظر: تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا (ت١٣٥٤هـــ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د. ط، ١٩٩٠م: ٥/ ١٩٠.
(٩٢) ينظر: تفسير ابن حيان: ٣/ ٦٩٣.
(٩٣) فهو وكل الأنبياء مأمورون بذلك بنص القرآن. من ذلك ما جاء من قوله تعالى في: (سورة محمد: ١٩، سورة آل عمران: ١٥٩، الممتحنة: ١٢، نوح: ٢٨، إبراهيم: ٤١)، فضلا عما جاء في السنة النبوية الشريفة.
(٩٤) تفسير الشعراوي: ٤/ ٢٣٧٨.
(٩٥) ينظر: تفسير ابن حيان: ٤/ ٥ ٩.
(٩٦) ينظر: تفسير الرازي: ١١/ ٢١٥.
(٩٧) ينظر: تفسير ابن عاشور: ٥/ ١٩٦.
(٩٨) ينظر: المفردات في غريب القرآن أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـــ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، ط ١، ١٤١٢هـــ: (ظلم): ٥٣٨، وتفسير ابن عاشور: ٥/ ١٩٥.
(٩٩) ينظر: تفسير ابن عاشور: ٥/ ١٩٥.
(١٠٠) ينظر: المفردات في غريب القرآن (سوأ): ٤٤١.
(١٠١) ينظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الشروق، القاهرة، ط ٤، ٢٠٠٤م: (سوأ): ٤٦٠.
(١٠٢) ينظر: لسان العرب: (سوأ): ١/ ٩٩.
(١٠٣) ينظر: تفسير المنار: ٥/ ٣٢٦.
(١٠٤) المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٣٧)
(١٠٥) صحيح البخاري: كتاب بدء الوحي، باب قوله: ((ولقد آتينا لقمان الحكمة)): ٤/ ١٩٨.
(١٠٦) ينظر: تفسير ابن عاشور: ٧/ ٣٣٢.
(١٠٧) ينظر: تفسير الرازي: ١٣/ ٤٩.
(١٠٨) يقول ابن تيمية رحمه الله: ((والتحقيقُ أنّ ظُلْمَ النفس جنسٌ عامّ يتناولُ كلَّ ذنب)). مجموع الفتاوى، أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت٧٢٨هـــ)، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، د. ط، ١٩٩٥م: ١١/ ٦٩٢.

(١٠٩) إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن، أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري(ت٦١٦ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٧٩م: ١/ ١٩٣.

(١١٠) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب، دار الفكر العربي، القاهرة، د. ط، د. ت: ٣/ ٨٩٣.

(١١١) آيات عتاب المصطفى صلى الله عليه وسلم في ضوء العصمة والاجتهاد، د. عويد بن عيَّاد بن عايد المطرَفي، كلية الشريعة بجامعة الملك عبد العزيز، مكة المكرمة، ط ٣، ٢٠٠٥م: ص: ٢١٧.

(١١٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم: ٣/ ٣٠٢.

(١١٣) ينظر: التفسير القرآني للقرآن: ٣/ ٨٩٣.

(١١٤) تفسير ابن حيان: ٤/ ٥٩.

(١١٥) ينظر: تفسير ابن عاشور: ٥/ ١٩٥.